

فصلية اللسان المبين (بحوث في الأدب العربي)
(علمية محكمة)

السنة الرابعة، المسلسل الجديد، العدد العاشر، شتاء ١٣٩١، ص ١-٢٠
المرأة ومعاناتها في ثنائية سحر خليفة؛ «الصبار» و «عباد الشمس»*

حسين أبويساني
أستاذ مساعد بجامعة الخوارزمي في طهران
زهرة باقريور ولاشاني
الماجستير بجامعة الخوارزمي في طهران

الملخص

يعتبر الأدب القصصي الحديث جزءاً هاماً من الأدب المعاصر. من وظائفه تجسيد الهموم الحياتية للإنسان المعاصر، فهو خير سفير لما يحدث في المجتمعات الإنسانية، خاصة إذا كانت الحياة تحت الاحتلال أو في حالة الحرب، فهي تحمل في أثنائها أشدّ الصعوبات للمجتمعات البشرية عامة وللمرأة خاصة. يهدف البحث دراسة موضوع المرأة ومعاناتها في ثنائية سحر خليفة؛ الصبار و عباد الشمس إذ ترسم الكاتبة فيها الحياة الإنسانية في الأرض المحتلة بأدقّ التفاصيل. فالحديث عن المرأة و قضاياها لا يتوفر إلا برصد الأوضاع التي تعيشها المرأة في مجالين؛ الأسرة و المجتمع، وهي التي يفرضها عليها عاملان؛ الأجواء الثقافية من جانب، و واقع الاحتلال من جانب آخر، و لهذين دور حاسم في تطور الشخصيات؛ تطور يختلف مداه من شخصية إلى أخرى. فيشير البحث إلى أقسام مختلفة من الشخصيات حسب تصرفاتها مع الظروف الراهنة و مدى التطور {سلبياً كان أو إيجابياً} الذي طرأ على حياتها أثناء هذا التعامل، و ينهج منهجاً تحليلياً بالتأكيد على أهم الموضوعات المؤثرة في حياة المرأة.

الكلمات الدلالية

الأدب القصصي، المرأة، سحر خليفة، الصبار، عباد الشمس.

تاريخ القبول: ١٣٩١/٠٨/٠٧

* - تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٠٩/٢٦

عنوان بريد الكاتب الإلكتروني: ho.abavisani@yahoo.com

١- المقدمة

إذا كان الأدب من شأنه التعبير عن المعاني بحيث يؤثر في عواطف القارئ و السامع، فمن وظائف الأدب القصصي -باعتباره جزءاً منه- إضافة إلى ذلك، وظائف أخرى منها بيان حقائق الحياة الإنسانية بآمالها وآلامها. تعدّ الرواية من أنواع الأدب القصصي الحديث «يعالج فيها المؤلف موضوعاً كاملاً أو أكثر، زاخراً بحياة تامة واحدة أو أكثر، فلا يفرغ القارئ منها إلا و قد ألمّ بحياة البطل أو الأبطال في مراحلهم المختلفة» (سلام، ١٩٧٣، ص ٥).

إنّ الحياة في حالة الحرب أو تحت الاحتلال تعتبر أشدّ الأدوار صعوبة و مرارة للبشرية إذ تحمل في أثنائها أفزع الفجائع للمجتمعات البشرية عامة و للأطفال و النساء خاصة. فاتخذنا في دراستنا هذه، الأدب القصصي ميداناً للبحث و اخترنا ثنائية سحر خليفة لغرض ما و هو أنّ هاتين الروائيتين تصوّران حياة جمّ غفير من الناس في الأراضي المحتلة بفلسطين في الضفة الغربية و قطاع غزة، و رأينا الكاتبة في أعمالها ممن ينتمون إلى الاتجاه الواقعي في أعمالها و تركز على قضية المرأة و مشاكلها و هي التي قد عاشت في الظروف التي صورتها. و مما يضيف إلى هذه الدراسة أهمية و افرة- في رأينا- هو تبين مشاكل الحياة البشرية و موضوع الاحتلال و المقاومة في الأدب القصصي. فنستهدف ما يلي:

- استخراج الظروف التي تعيشها المرأة في الثنائية للكشف عن العوامل التي أدت إليها.
- رصد كيفية تعامل المرأة مع الحياة في تلك الظروف؛ أهي تقاوم أم تستسلم؟
- الإجابة عن: ما هو دور الظروف المشار إليها في تحوّل شخصية المرأة إلى المقاومة أو الاستسلام؟

- دراسة دور المرأة في علاقاتها بالأسرة و المجتمع و قضية الاحتلال هل هو دور فاعل أم هامشي؟

- و أخيراً نتصدّى لتقييم الثنائية من جهة مقدرتها في تصوير حياة المرأة و مدى دقّتها في هذا الشأن و في انعكاس الواقع.

نحاول دراسة الموضوع من خلال الاهتمام بالظروف التي تعيشها المرأة في مجالين؛ الثقافة و المجتمع، ثم نأتي بنماذج مختلفة من المرأة التي تطلعننا بها الكاتبة في الثنائية و أخيراً نقسّم الشخصيات النسائية حسب التعامل مع الواقع المعيش إلى ثلاث فئات؛ المستسلمة، المقاومة، و المتمردة. و عبرها نعالج مدى التحول الذي طرأ على حياتهن خلال تطور الأحداث و هو إمّا من التسليم إلى المقاومة أو من المقاومة إلى التسليم.

٢- خلفية الدراسة

هناك بعض الدراسات تتعرض لصورة المرأة في الروايات الفلسطينية قد تتضمن ثنائية سحر خليفة و بعض شخصياتها النسائية، منها ما يلي:

_ الخطاب الروائي والقضايا الكبرى، النزعة الإنسانية في أعمال سحر خليفة (١٩٩١م) للباحث محمد معتصم الذي يتناول روايات سحر خليفة من حيث المضمون والمحتوى ضمن محاولته لدراسة المرأة في الرواية العربية ولكن من عجيب الأمر أنه حينما يتعرض لموضوع المرأة يكتفى بدراسة ثلاث من روايات الكاتبة ويغفل عن ثنائيتها ثم يصدر أحكاماً كلية حول المرأة في أعمالها الروائية. ويقول: «إن نساء سحر خليفة: تتحقق ذواتهن بتحقيق السلم الاجتماعي والسياسي والفكري؛ أي تحرير الأرض من هيمنة الدخيل، وفك قيود العادة والتقليد.» (معتصم، ١٩٩١: ١٣).

_ الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة الغربية و قطاع غزة (١٩٦٧-١٩٩٣) (١٩٩٦م) و هي رسالة ماجستير في الأدب والنقد الفلسطيني الحديث للباحث محمد أيوب -جامعة النجاح الفلسطينية - قد تعرض فيها الكاتب لصورة المرأة بشكل سريع، يصنفها حسب الأدوار التي تقوم بها المرأة ولكنة قد يغمض العين عن بعض الأدوار، مما يؤدي إلى عدم الاهتمام ببعض الشخصيات ثم يخلص إلى القول بحكم كلي وهو: «دور المرأة ظلّ هامشياً في الروايات الفلسطينية.» (أيوب، ١٩٩٦: ١٤٠). ولكن هذا الحكم قد أُلغى بعد سنتين من قبل عدد من الباحثين، منهم حسان رشاد الشامي إذ يتناول ثماني عشرة من الروايات الفلسطينية، منها ثنائية سحر خليفة حينما يثبت الباحث: أن للمرأة دوراً متمماً لدور الرجل على كل المستويات من الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنضالية والثقافية فلها دورها الفاعل والمؤثر في جميع المجالات المشار إليها (الشامي، ١٩٩٨: ٢٨٥).

_ المرأة في الرواية الفلسطينية (١٩٦٥-١٩٨٥) (١٩٩٨م) للباحث حسان رشاد الشامي حيث بنى بحثه على ثماني عشرة رواية لثمانية من الروائين الفلسطينيين منهم سحر خليفة. فيعالج الكاتب صورة المرأة في علاقتها بالأسرة و المجتمع و الوطن و يأتي ضمنها ببعض النماذج المختلفة من المرأة من حيث كيفية تعاملها في هذه العلاقات، كما يعالج الشخصيات النسائية معالجة فنية. أمّا الفارق الأساس بين هذا البحث وما جاء به رشاد الشامي، فهو أن الكاتب يشير إلى روايات سحر خليفة ضمن دراسة الشخصيات النسائية في الروايات الفلسطينية ولكن روايات الأديبة تتطلب مزيداً من التعمق والتروى مما يمكن أن ينال في بحث مستقل تختص بها.

ويخطو على هذا المنوال زكي العيلة في رسالته للماجستير بعنوان. المرأة في الرواية الفلسطينية (١٩٨٧-٢٠٠٠) (٢٠٠٢م) -جامعة عين شمس- إذ يتناول قضايا المرأة من

٤/ المرأة ومعاناتها في ثنائية سحر خليفة؛ «الصَّبَار» و «عَبَاد الشمس»

الحب و التعليم و العمل وغيرها من القضايا. أما هذه الدراسة فترمي إلى معالجة موضوع المرأة في ثنائية سحر خليفة مباشرة لا من خلال دراسة أعمال الكاتبة بكاملها ولا من خلال الروايات الفلسطينية بجامعها، راصدةً التعرف على صورة المرأة ومعاناتها في الثنائية.

٣- التعريف بالكاتبة و مكانتها الأدبية

سحر خليفة واحدة من أهم الروائيين الفلسطينيين. ولدت في نابلس عام ١٩٤١م، و أصبحت معروفة في مدينتها بسبب موقفها من موضوع تحرير المرأة. تزوجت في سن مبكرة زواجا تقليدياً؛ و بعد مرور ثلاثة عشر عاماً من الإحباط و خيبة الأمل قررت أن تتحرر من هذا الزواج و تترك حياتها للكتابة. فعادت لتواصل دراستها الجامعية و قد حصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة أيوا في موضوعى دراسات المرأة، و الأدب الأمريكى (الجيوسى)، ١٩٩٧: ٢٢٩). وعلى صعيد الكتابة حققت الكثير من الإنجازات الأدبية برواياتها التي توالى وتدرجت بشكل لافت ومهم في مشهد السرد ليس الفلسطينى ولا العربى فحسب بل العالمى أيضاً، فقد تمكنت من الوصول إلى أرقى دور النشر الأوروبية، ورواياتها مترجمة إلى أكثر من ثلاث عشرة لغة وتجرى عليها العديد من البحوث، ليس فقط على المستوى النقدى الأدبى، بل أيضاً تُدرّس في مساقات التاريخ ومساقات علم الاجتماع. وقد نالت الكثير من الجوائز والتكريمات العالمية كجائزة ألبرتو مورافيا الإيطالية، وجائزة ثرفانتس الإسبانية، وجائزة نجيب محفوظ للرواية لعام ٢٠٠٦م عن روايتها: صورة وأيقونة وعهد قديم، وتعتبر هذه الجائزة، أول جائزة عربية تحصل عليها وجائزة سيمون دوفوار الفرنسية لعام ٢٠٠٩م والتي رفضت تقاسمها مع الكاتبة الإسرائيلية تسفيا جرين فيلد، معتبرة أن القبول بنصف الجائزة يعنى نصف اعتراف، وأخيراً نالت الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر العربية) لسنة ٢٠١٠م بسبب روايتها: أصل وفصل (لحرس، لاتا، ١ وجابر، لاتا: ١).

كتبت حتى الآن تسع روايات: روايتها الأولى لم نعد جوارى لكم (١٩٧٤م) أحدثت صدى كبيراً بسبب دفاعها عن حرية المرأة، غير أن سحر لم تحظ بالاعتراف الأدبى إلا بعد صدور روايتها الثانية الصبار^٢ (١٩٧٦م)، ثم أصدرت عبّاد الشمس (١٩٨٠م)، مذكرات امرأة غير واقعية^٣ (١٩٨٦م)، باب الساحة (١٩٩٠م)، الميراث (١٩٧٧م)، صورة وأيقونة وعهد قديم (٢٠٠٢م)، ثم أصدرت ربيع حار (٢٠٠٥م)، وأخيراً أصل وفصل (٢٠٠٩م) (كريم، لاتا: ١).

للكاتبة مكانة مرموقة بين الروائيات الشهيرات اللاتى يمتهن بالأدب النسائى وقضية المرأة وهى حقيقة تتردد كثيراً بين أقوال الكتاب والدارسين والناقدين؛ تقول بثينة شعبان^٤: «كما أن زينب فواز [كاتبة لبنانية (١٨٦٠م-١٩١٤م)] هى التى كتبت أول رواية عربية [تحمل عنوان حسن العواقب أو غادة الزاهرة] فى نهاية القرن الماضى، فإن سحر خليفة هى الروائية العربية

الأولى في النصف الثاني من القرن العشرين، التي أسست لرواية نسائية تحررية سياسية وملتزمة فناً وموضوعاً» (١٩٩٩: ٢١٥). أما باحث آخر، فيشير إلى مكانة سحر خليفة الأدبية قائلاً: «تعد الروائية سحر خليفة من أهم الروائيات العرب والفلسطينيات، وإلى جانب إبداعاتها الروائية عُرفت بمواقفها في الدفاع عن حرية المرأة سواء كان ذلك على صعيد مدينتها نابلس أم من خلال تركيزها على الجانب النسوي في كل مؤلفاتها، ومما يعلو بمكانتها هو انتماؤها إلى جيل معروف من الروائيين الفلسطينيين أمثال غسان كنفاني، ويحيى يخلف، ورشاد أبوشاور، الذين كتبوا أعمالهم الروائية بأسلوب واقعي وتسجيلي بعيداً عن الرومانسية، وأبرزوا القضية الفلسطينية في إبداعاتهم، وأظهروا أيضاً دور الثورة الفلسطينية في تغيير الواقع الفاسد الذي يحاول الاحتلال تكريسه في فلسطين وفي الوطن العربي عموماً» (أبو شير، ٢٠٠٧: ٢٦٩).

تعدّ روايات خليفة جديرة بالدراسة والترجمة لما تحمله من مضامين إنسانية وحضارية وعالمية مثل المقاومة والاحتلال وتحرير المرأة وغير ذلك من الموضوعات والقضايا التي تهم شعوب العالم، فليس من العجيب أن تأتي إبداعاتها في المرتبة الثالثة من حيث الترجمة بعد نجيب محفوظ وغسان كنفاني (المصدر السابق: ٢٧٢).

٤- التعريف بالثنائية:

يراد بالثنائية، الروايتان؛ الصبّار وعبّاد الشمس. فإن رواية الصبّار تدور حول حياة عدة عوائل في الأراضي المحتلة؛ عائلة الكرمي التي تشتمل على أبي عادل وزوجته وابنيهما؛ عادل وباسل وابنتهما نوار. وعائلة أسامة (ابن اخت أبي عادل). وأبي صابر وزوجته عيشة، وزهدى وزوجته سعدية، وما يحدث بينهم من الأحداث والصلوات.

تقدّم الكاتبة هذه العوائل وحياتها ممثلة للشعب الفلسطيني الذي يعيش تحت نير الاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة منذ حزيران ١٩٦٧م وتكشف عن مختلف جوانب حياتهم الفردية والاجتماعية مما يسيطر عليها في ظل الاحتلال من الفقر الناتج عن استغلال مؤسسات الصهيونية وهكذا من اليأس والخيبة وعدم تمتع المجتمع الفلسطيني بأبسط حقوقه الإنسانية.

يشتمل عدد من رجال القصة (عادل، أبي صابر، و زهدى) في معامل الصهيونية وفي ظروف قاسية فهم يعملون بجانب العمال اليهوديين دون أن يكون لهم حقوق متساوية ودون أن يتمتعوا بأقل الحقوق النقابية فلا بدّ لهم أن يكتفوا بلقمة عيش ويحتملوا مشاق العمل، وهذه الظروف تؤدي إلى رفض بعضهم للتفرقة الموجودة ومنازعة العمال الصهاينة واحتمال السجن والتعذيب والاعتقال، لكن المنازعة لأجل العمل تتبدل إلى كفاح لأجل تحرير الأرض والوطن لما يصل إليه البعض (أسامة) من التنبه، معتقداً أن رأس المشاكل الموجودة

٦/ المرأة ومعاناتها في ثنائية سحر خليفة؛ «الصبّار» و «عباد الشمس»

في الأرض المحتلة هو الاحتلال والاستسلام للظلم. ففي عباد الشمس وهي الجزء الثاني من الصبار، يعمّ هذا الانتباه الآخرين حتى الشخصيات النسائية مثل لينة وسعدية ورفيف فيلتحقن بميدان الكفاح والنضال أمام العدو الغاصب وقبل ذلك أمام قيود المجتمع و وصاية الرجل. و في المقابل تعتقد أكثر الشخصيات النسائية أنهن قد وقعن أمام احتلالين؛ احتلال التقاليد والعادات المتوارثة السلبية، واحتلال العدو الغاصب، فلا بد لهن من كفاحين؛ تحدى قيود المجتمع كالجهل و الخرافة والشعوذة و النظرة الدونية إلى المرأة، وكفاح للتحرر من نير الاحتلال الصهيوني. كما أنّ منهنّ من يلحّن على البقاء في الجهل والاستسلام تجاه الظروف الموجودة.

٥- دراسة العوامل المؤدية إلى الظروف الراهنة

إنّ سحر خليفة تحاول_ فيما تحاول_ أن ترسم الشخصيات النسائية، فتهم برصد الصعاب والمشاكل التي تعانيها المرأة في المجتمع الفلسطيني وكشف الجو الفكري المسيطر عليه بغية الوصول إلى جذور تلك المشاكل واستنهاض الهمم وإثارته للنضال والصمود. وفيما يلي سنفضّل الحديث عن هذه العوامل؛ كلٌّ على حدة.

٥-١ الظروف الثقافية

ترسم لنا الكاتبة شخصياتها النسائية مكبولة بقيود العادات والتقاليد والأعراف السلبية التي تحيط بالمجتمع التقليدي المتخلف وتقيّد المرأة بسلاسل الاستعباد والخضوع منها: تفضيل الذكر على الأنثى أو النظرة الدونية إلى المرأة باعتبارها ذات عقل ناقص و جسد فاضح. فيما أنّ الرجل يستمتع بالقدرة الجسمية التي تعينه في ظروف العمل الصعبة والحروب الطاحنة، لا يزال يُعتبر القوة الفاعلة و اليد المنتجة للأسرة فيفضله المجتمع على المرأة تفضيلاً وتتردد هذه الفكرة في الأذهان على مدى العصور والأجيال وماتزال تترك آثارها على حياة المرأة في مجال الحياة العائلية والاجتماعية وتتنضح معالمها في المجتمع الذي صوّرتة سحر خليفة في رواياتها حيث تؤثر على شخصياتها الروائية.

من أهم معالم التمييز الجنسي البارزة في حياة المرأة هو أنّ المجتمع لا يحترم إنسانيتها ومشاعرها في قضية الزواج فلا يأخذ رأيها في الحساب لأنّ المجتمع لا يميز لها حق التعبير عن الرأي في هذا المجال، بل إنّها محكوم عليها بالصمت والخضوع والاستسلام أمام السلطة الأبوية الصارمة. فالشخصيات النسائية التي ترسمهن الكاتبة في الثنائية لسن بعيدات عن هذه الأزمة الثقافية التي تعانيها المرأة في المجتمع الشرقي، قد فرضت عليهن التبعيّة المطلقة للرجل؛ أباً كان أم زوجاً، وهذا الحرمان لا يقتصر على المرأة البسيطة الأميّة بل يتعداها إلى المثقفة الجامعية كما تواجه نوار هذه المشكلة، و هي الابنة الوحيدة لعائلة الكرمي؛ الفتاة

الجامعية التي تدرس في دار المعلمين، ومع أنها متعلمة مثقفة ذات وعى وعقل، لا يسمح لها الأب أن تعبر عن رأيها في اختيار الزوج بل يجبرها على الزواج ممن لا ترغب فيه وهو الدكتور عزت الذي يملك مالاً وفيراً. بغية التخلص مما لحق بالأسرة من البؤس والفقر. وفي حين يخيم على المجتمع ظل هيمنة الرجولية، تصارع البنت والدها بحبها صالح الصفدى وتنسب برأيها متكئة على أخيها باسل الذي يقف بجانبها ويدعم موقفها وحرمتها حيث يقول: «نوار الكرمي تحب صالح الصفدى و لن تتزوج من أى رجل سواه. نوار الكرمي تحب مناظلاً ولا أعرف كيف يحب أى مناظر فتاة مائة كنوار الكرمي!» (خليفة، ١٩٩٩: ١٧٠). فتترك الفتاة عالم الخنوع والجبن وتطلب الحرية صائحة: «أنا لن أتزوج إلا من صالح، ولن أرى أى رجل آخر، لا عبد ربه ولا أى عبد آخر، أنا لن أتزوج إلا من صالح حتى ولو انتظرته مئة سنة...» (المصدر السابق).

إن المجتمع الذي ترسمه سحر خليفة، يحرم المرأة من معظم حقوقها الإنسانية وخاصة الاجتماعية منها فلا يترك لها مجالاً للقيام بشؤونها الاجتماعية، وهذه الحقيقة تتجسد في حياة سعدية عندما تبحث عن عمل ما، بعد استشهاد زوجها زهدى؛ حيث تندهور حياتها فلا بد لها أن تدخل المجتمع لتأمين لقمة العيش و سدّ حاجات أسرتها الكبيرة، فحينئذ تتكاثر حولها الأقوال والإشاعات وتقيدها الأعراف والتقاليد السلبية مما تجرى على السنة الجاهلات من نساء الحارة كأم صابر و أم فتحي و أم بدوى و أم تحسين اللاتي ينكرن عليها هذا الحق ويصوّبنها بسهام الطعن والافتراء وأنواع السباب ك «يا مخزية يا ديرة يا أم الليرات الحرام» (خليفة، ٢٠٠٨: ٥٠). ولكن سعدية قوية، عالية الهمة، تلحّ على عملها و هي تحافظ على شرفها وعفة نفسها غيرمبالية بهذه الأقوال لأن العمل عندها «هو الحل الوحيد، ففيه الرزق وفيه النسيان وفيه الفرج» (المصدر السابق: ٥١).

و من الآلام التي تهدد الثقافة وتعكر الأجواء الثقافية في كل مجتمع وكذلك في مجتمع تصوّره سحر خليفة هي الجهل والخرافة؛ وهما من أهم ما يدفع المجتمع إلى محاكاة العادات والتقاليد العشوائية، سلبية كانت أو إيجابية. ومما يزيد الطين بلة هو أن الظاهرتين قد حلّتا محلّ القبول عند المرأة حيث تخضع لكل ما يفرض عليها وتستسلم لها بالصمت والرضا. إن شخصية عيشة (أم صابر)، هي خير من تمثل هذه الظروف وهؤلاء الشخصيات، التي تعرّف على مدى جهلها وانتمائها إلى عالم الخرافة من خلال تصرفاتها عند مواجهة الأزمة التي تلحق بالأسرة بعد قطع أصابع زوجها أثناء العمل في المصانع الإسرائيلية بتل أبيب، فنراها تستقبل زوجها بالبكاء والنواح حينما يأتي به زميله عادل إلى داره، و هي تصيح و تهول بين المطبخ والحمام وغرفة النوم، وتندب وتلطم صدرها وتنسب القضية للعين الحاسدة الشريرة؛ تشكو الدهر وتظهر مخاوفها من الأيام الصعبة القادمة، والأساور الذهبية

٨/ المرأة ومعاناتها في ثنائية سحر خليفة؛ «الصبار» و «عباد الشمس»

تتألاً وتخشخش في معصمها. فنها تقوم بمعالجة الأمور بالاستخارة والكتابة و شىّ الشبّة وغيرها من أساليب الخرافة والجهل:

«...واتجهت نحو الغرفة وفتحت خزانة ولبست معطفاً أسود فوق ثوبها البيتي القذر بعد أن شدتّ خصر الثوب بجورب نايلون قديم، وارتفعت أذيال الثوب واختفى تحت المعطف. دسّت قدميها في حذاء بال ورمت على رأسها منديلاً أسود، خرجت و هي تردّد توصياتها لكبرى بناتها...إذا سألت عنى أم بدوى قولى لها تعمل استخارة وخليها تشوى شبّة^٥ وتطلع العين اللى طرقت أباك، وإذا كانت فاضية خليها تروح عند السامريين تكتب له حجاب». (خليفة، ١٩٩٩: ٥٢ و ٥٣).

إن العجز عن التصدى العقلانى للمشكلات والأزمات يدفع أم صابر إلى النكوص إلى المستوى الخرافى و إلى الحلول السحرية والغيبية بداية، ثم يدفعها إلى إقناع ولدها البكر صابر بترك الدراسة بعدما طلبَ منه أبوصابر بيع أساورها، فنجدها تحت الولد بإعالة الأسرة، غير مكترثة بضياح مستقبله العلمى. فبدلاً من أن تقف إلى جانب زوجها وتخفف عنه وتتحمّل مسؤولياتها - كما فعلت سعدية بعد قتل زوجها - نراها تترك زوجها المصاب ساعات طويلة، تترثر فيها مع أم بدوى، تستغيبان تحت نافذتها نساء الحارة. لا يتوقف جهل أم صابر إلى هذا الحد بل يتجاوزه إلى أن تستنكر عمل سعدية ومثيالاتها من النساء اللاتى بذلن قصارى جهودهنّ لأجل الأسرة (الشامى، ١٩٩٩: ١٤١، العيلة، ٢٠٠٢: ٢٧).

٥-٢ الظروف الاجتماعية

بما أنّ الأجواء الاجتماعية السائدة على المجتمع، وليدة ثقافة تحكّم عليه، فليس من العجيب أن تعاني فيه المرأة آلامَ التفرد والعنف والافتراء، وأن تحرم من أبسط حقوقها الاجتماعية. من الآلام التي تعانيها لمرأة في مجتمع الثنائية أعمال العنف عليها من ناحية الرجل، وهذه حقيقة لاتزال تشاهد في كل مجتمع متخلف وكذلك المجتمع الذى تصوّره سحر خليفة فى الثنائية، فنرى من الشخصيات النسائية من تعاني من هذه الملمة الاجتماعية ومنهن خضرة، وهى فتاة تتلخص حياتها فى الفقر والذل والتشرد والحرمان؛ تقضى أيام طفولتها فى التشرد والبؤس حينما تدور بعد فقدان الأم من خيمة إلى خيمة ومن دار إلى دار، تعمل خادمة فى البيوت، تعيش فى ظل أب لا يرحم؛ يزوّجها من رجل متقدم فى السن يذيقها ألواناً من الضرب والعذاب ويشاركه فى ضربها أولاده فتهرب من بيت الرجل وتلجأ إلى زوج آخر بعمر أبيها، مريض القلب ولكنه رغم مرضه يعاملها معاملة حسنة ويحترم إنسانيتها ومشاعرها ويتكلم معها بأحلى الأقوال والكلمات؛ الكلمات التي لم تسمعها الفتاة طوال عمرها لا من أبيها ولا من زوجها الأول، ولهذه الكلمات العذبة مفعول السحر فى نفسها

فيحثها على السعى لأجل الحفاظ على حياتها الزوجية؛ تخدم الزوج، تطعمه وتسقيه وتشترى له الدواء وتراعى شؤونه راجيةً سماع كلماته الحانية الدافئة كـ«خضرة ياست الكل»، الكلام الذى ينزل على قلبها مثل السكر وينفخ فى نفسها الأمل والرجاء ويحثها فى الأيام الصعبة حيث لم يعد لديها ما تخاف على فقده، إلى بيع جسدها كى تشتري الدواء للزوج الذى يحترم إنسانيتها ومشاعرها (العيلة، ٢٠٠٢: ٣٧).

إن الأوضاع الاقتصادية الصعبة الناتجة عن الاحتلال تفرض الفقر والبؤس على المجتمع الفلسطينى؛ تجبره أن يدفع ثمناً باهظاً وتجعله فى ظروف بالغة الصعوبة؛ ظروف تذيب الأسرة طعم الجوع والفقر والمسكنة وتجعلها تضحي ضحايا باهظة و تدهور حياة أولادها بغية الوصول إلى متطلبات الحياة اليومية و سدّ حاجاتها المادية كما نراه فى عائلة الكرمى، التى دفعتها الظروف الصعبة إلى اضطرار ابنتها الوحيدة على الزواج من «شاب أحواله المادية فوق الريح والزبائن أمام عيادته كالذباب» (خليفة، ١٩٩٩: ١٦٤). وقد تجعل الظروف القاسية أبا الأسرة أن يجبر بنته الصغيرة على العمل فى البيوت وبالتالي إلى بيعها لسدّ الحاجات المادية وهذا ما نلمسه بوضوح فى حياة خضرة إذ تحكى على سعدية ذكرياتها الطفولية المرّة ومعاناة الفقر والجوع وتقول:

«...وأبوى كان حنون لحدّ ما ماتت أمّى. من يومها صار مثل الوحش الكاسر. يضرب حاله ويضرب حالنا. وكل ما واحد قال يابا أنا جوعان يحطّنا وينزل فينا قتل.. كان أبوى فلّاح مثل باقى الفلاحين. عنده أرض صغيرة كافية فيه خيرنا وشرّنا. وراحت البلاد وراحت الأرض، ودرنا من خيمة لخيمة، من مخيم لمخيم ومن دار لدار. واشتغلت خدّامة فى هالدار وخدّامة فى هالدار لحدّ ما جورّنى. قبض أبوى المهر واشترى حنطور. المسكين، منعت البلديّة الحنطير ودار أبوى مثل الدرويش. بعدين راح عالكويت ومات هناك» (خليفة، ٢٠٠٨: ١٢٥ و ١٢٦).

قد يهدف الفقر والبؤس بسهامهما إلى ما له أكثر قيمة فى حياة المرأة؛ وهو شرفها الإنسانى وعفة نفسها مما يضطرّ خضرة إلى السرقة بداية لتلبية شهوات بطنها ثم إلى بيع جسدها تلبية لضرورات الحياة اليومية وخاصة توفير الدواء لزوجها الكهل الذى هدّده المرض. وهذا ما ندركه من خلال الحوار الذى يجرى بينها وبين سعدية إذ تبكى وتقول: «لا أوّل واحد ولا آخر واحد. الدنيا كلّها شقا بشقا. باعتنا وما حدّ اشترانا، حتى أبوى باعنى واشترى حنطور. وأنا بيع حالى وبشترى للمسكين دوا. دنيا ما عليها أسف، قتل وبهدلة وسرقة تعريض وخرّة. الدنيا كلّها من هالشكل.» (المصدر السابق: ١٣٥).

وقد يضحي الفقر والحرمان كل ما تتعلق به المرأة وتحبه كما نراه ممثلاً فى حياة سعدية قبل استشهاد زوجها زهدى فى أيام اعتقال الزوج حيث يصبح العدس أرستقراطياً، فنراها

١٠/ المرأة ومعاناتها في ثنائية سحر خليفة؛ «الصَّبَّار» و «عَبَاد الشمس»

تبيع أساورها تلبية لحاجات أسرته الكبيرة وتوفير لقمة عيش لأجلها (الخليفة، ١٩٩٩: ١٤٧). هكذا لا تأمن أم صابر من آفة الفقر البائس وليست بأحسن حظاً من سعدية وخضرة في الحياة فراها تحس بالذل والهوان إذ تصرخ في وجه طفلها الذي يمدّ يده نحو صندوق الإسكندنيا، وتمنعه من الأخذ من الفواكه، وحين أخذت البائع الحمية والشهامة والكرم، وناول الطفل بضع حبات من الفاكهة، انتحت أم صابر بالطفل جانباً، وحذرت من أن يحكى لإخوته عما حصل، خوفاً من أن يثير شهيتهم ويزيد من شعورهم بالحرمان. عجزت الأم عن تلبية أدنى رغبات الطفل، خلفت في نفسها جروحاً فاغرة الأفواه، وزرعت في قلبها بذرة الحقد والكراهية والغضب على كل من أسهم في صنع الدولة العبرية (الشامي، ١٩٩٩: ٧٥ و٧٦).

فلقد كان الفقر من أكبر المشاكل التي ألقاها الاحتلال على عاتق الشعب الفلسطيني؛ فرض عليه الغلاء المتفاقم وانخفاض مستوى المعيشة، وقصم به ظهر الشعب المضطهد. إذن تصوّر الكاتبة في هاتين الروايتين أبرز ما يتركه الفقر للإنسان الفلسطيني؛ من التذليل والهجوم على المشاعر وتحطيم الكبرياء وأخيراً الجرح إلى مستنقع المهالك، مؤكدة على أنه لا يأمن أحدٌ من سهام هجمات الفقر النَّهَاب؛ إذ يسلب آمانيات الأطفال وعلو غايات الشباب وشرف النساء.

٦- نماذج المرأة في الثنائية

تطالعنا الكاتبة عبر أحداث الثنائية بنماذج مختلفة من المرأة، يمكن تحديد هذه النماذج في: التقليدية، المثقفة، الثورية المناضلة والمرأة البغي. سنعالج هذه الملامح فيما يلي:

٦-١ نموذج المرأة التقليدية

المرأة التقليدية هي التي «تفكيرها بسيط، ووعياها عفوى ومحدود، ويغلب أن تكون أمية. اهتماماتها بسيطة، تبدو قدرية إلى حد بعيد، وخاضعة بصورة شبه كلية للعادات والتقاليد، وتنتمي، غالباً إلى جيل ما قبل النكبة، جيل الأربعينات والثلاثينات وما قبل». (الشامي، ١٩٩٨: ١٣٧).

يمكن تمييز هذا النموذج من المرأة بين النوعين: السلبية والإيجابية؛ أما النمط الأول فتتجسد صورته في شخصيات: أم صابر و أم تحسين و أم فتحي و أم بدوى التي تعرفنا على ملامح شخصيتهن في البحث عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية. وكذلك تعتبر أم أسامة من هذا النموذج من النساء، هي التي تتضح رؤيتها القاصرة للأمور و جهلها بقضايا الواقع اليومي من بداية رواية صَبَّار إذ أصبح همها الخاص تزويج ابنه الوحيد أسامة من نوار ابنة أخيها بغية الحصول على ارثها بعد وفاة الوالد لذا نجدها لاتمل من الحديث عن نوار

ووصفها: «و ابنة خالك نوار أصبحت منورة. طويلة. شعرها أملس بدون تمليس. والشباب يلحقونها كل يوم من باب الدار حتى كلية النجاح.. و نوار نوارة الدار.. و بشرتها صافية كالجليب.. و البنت مثل الشمعدان طويلة.. و أنت بت عريساً. فما رأيك؟» (خليفة، ١٩٩٩: ٢٩ و ٣٠). فتجسدها الكاتبة بالبساطة والعفوية والقدرية من خلال حديثها مع أسامة عن أوضاع البلد فحينما يعبر الابن عن سخطه على الواقع وعن قلقه من وضع البلد نراها تجيبه مطمئنة إياه: «البلد بخير يا ابني، بكره يحلها الحلال و يزول الاحتلال.. قلت لك الحلال يا ابني. ألا تؤمن بقدرة الله جلّ وعلا؟» (المصدر السابق: ٣٠) وبنظرة معزولة عن إدراك الواقع المعيشي تحاول أن تهون الأمور على ابنها مدللة على صواب نظرتها: «قلت لك البلد بخير. و بكرة يحلها الحلال. ويمكن الصحفيين الأجانب الذين يزورون خالك يؤثرون على أمريكا. وأمريكا تقول لإسرائيل انسحبي فتسحب. رأيت كيف أن الأمور ليست صعبة كما تتصور؟ ألم أقل لك بكره يحلها الحلال؟» (المصدر السابق).

أما المرأة التقليدية الإيجابية فلها سمات تميزها من السلبية وهي: «الطيبة والصدق والبساطة، والقدرة على العطاء، إذ كثيراً ما تبدو المرأة متفانية في سبيل أسرته، وأحياناً في سبيل الآخرين. تعزز بكرامتها، وتصون نفسها، وتحفظ لسانها. وغالباً ما يتجلى دورها الفاعل في الأوقات الصعبة. تبدو متمسكة بالعادات والتقاليد، ولكنها في الوقت نفسه تتمتع بالمرونة. فهي لاتعارض كل ما هو جديد..» (الشامي، ١٩٩٨: ١٤٧).

ولعلّ أبرز من يجسد هذه الصفات الإيجابية سعادية (أم حمادة) في عباد الشمس، وهي نموذج المرأة المدنية العاملة غير المتعلمة التي اضطرتها الظروف الصعبة بعد استشهاد زوجها للعمل. وسنفضّل الحديث عنها في المبحث الشخصيات المقاومة.

٦-٢ نموذج المرأة المثقفة

تعرفنا الكاتبة بنموذجين من المرأة المثقفة في الثنائية: المثقفة الانتقالية والمثقفة الواعية. أما بالنسبة إلى النمط الأول فأبرز ما يميز هذا النموذج: «صفة التحول التدريجي التي تتضح عبر سلوك الشخصية، ومواقفها وأفكارها في مرحلة نضجها وتبلور وعيها لذاتها، وللعالم من حولها، وقد يتسم هذا التحول بالانعطاف إلى الخلف أو التقدم إلى الأمام..» (الشامي، ١٩٩٨: ١٧٢). ويقسم هذا النموذج إلى السلبية والإيجابية. ونوار الكرمي هي التي تمثل نموذج المرأة الانتقالية السلبية بسبب ما نرى في تصرفاته من القلق والتردد بين القديم والجديد، بين الواقع الراهن والحلم بكل ما يزرع به من طموحات وآمال فسيحة. فهي تعاني من حالة الركود والقلق والاضطراب بحيث لا تختلف كثيراً عن أخيها (عادل) في قلقه وتناقضاته وفي رؤيته للواقع المضطرب وتعامله معه وقد تشبهه بأسل (أخاها الأصغر) في بعض أفكاره ومواقفه الراضة للاحتلال (المصدر السابق).

١٢/ المرأة ومعاناتها في ثنائية سحر خليفة؛ «الصبار» و «عباد الشمس»

أما المرأة المثقفة الواعية فيمكن القول بأن الكاتبة تعبّر عبر هذه الشخصيات عن أهم القضايا التي تتصل بعالم المرأة وقضيتها، لأنها تهتمّ بقضايا المجتمع بفضل نشاطها العملي واتصالها المباشر بالجمهير الشعبية والتأثير على الأفكار. لما إن «وظيفة المثقف العربي هي الالتزام بقضايا المجتمع والأمة العربية، بحيث لا يكون متقفاً إذا ابتعد عن هموم مجتمعه وقضايا أمته.» (وتار، ١٩٩٩: ١٦) ولعلّ أبرز الشخصيات النسائية التي تطلّعتنا الكاتبة بها هي شخصية رفيف في عباد الشمس التي نتعرف عليها وشخصيتها المثقفة فيما يأتي في البحث عن الشخصيات المتمردة.

٣-٦ نموذج المرأة الثورية المناضلة

تطلّعتنا الكاتبة عبر أحداث الثنائية ببعض الشخصيات النسائية التي خرجت مع الثورة إلى دنيا المغامرة والفعل الثوري وشاركت الرجل في مهامه النضالية أمثال لنا الصفدي شقيقة المناضل (صالح) المعتقل في سجون الاحتلال بسبب انتمائها إلى إحدى الخلايا الفدائية فاعتقلت عقب عملية أسامة التي استهدفت نصف باصات العمال حيث «سحبوها من فراشها في منتصف الليل بعد أن طوقوا الشارع كله» (خليفة، ١٩٩٩: ١٥٦). فلينا فتاة صلبة تتميز بالصمود وهذه الميزة هي التي تعرفنا عليها مرة من خلال نصائح أسامة النهائية لابن خاله (باسل) قبل استشهاده حيث يوصيه بأن: «لا تقطع بأي موضوع دون استشارة لينا. فتاة صلبة لديها خبرة» (المصدر السابق: ١٣٦) ومرة من خلال تداعيات باسل بعد اعتقال لينا إذ يتساءل عما سيجره اعتقالها من نتائج واعترافات: «.. ماذا لو حضر اليهود؟ ماذا لو حصلوا من لينا على اعتراف كامل. التعذيب.. أسامة.. القبو.. الصناديق.. المناشير.. ما العمل؟ لينا انسان صلبة، هكذا قيل له، وقد تحتل التعذيب، ولكن هل يحتمله هو؟» (المصدر السابق: ١٥٩)

٤-٦ نموذج المرأة البغي

إلى جانب نماذج المذكورة في الثنائية لانسي وجود بعض الشخصيات المنحرفة في الثنائية التي انغمست في الرذيلة تحت وطأة الظروف القاسية. ولعلّ شخصية خضرة في عباد الشمس هي الممثلة الوحيدة لهذا النموذج من المرأة التي تحدّثنا عن حياتها وآلامها فيما مرّ ذكره في المبحث الظروف الثقافية.

٧- تقسيم الشخصيات النسائية في الثنائية حسب تعاملهن مع الظروف الراهنة

بما أنّ الواقع الصعب الذي يفرضه الاحتلال على الإنسان الفلسطيني عامّة والمرأة الفلسطينية خاصة، يتطلب تصرفات خاصّة تقتضي تلك الظروف، فنرى هذه النماذج من المرأة في الثنائية تتصرف؛ إمّا بقبول الظروف والقناعة بما يلحق بها من الأزمات والمضايق إما بمكافحة كل ما هو سلبي من الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وإما بالتمرد على كل

العادات والتقاليد الاجتماعية بوصفها ضغوطاً يحمل عليها المجتمع. فبناءً على ما تقدّم يمكننا تقسيم الشخصيات النسائية في الثنائية إلى: المستسلمة، والمقاومة، والتمردة.

٧-١- الشخصيات المستسلمة

يراد بالاستسلام قبول الأجواء الراهنة بكل سلبياتها وإيجابياتها. والشخصيات المستسلمة تشتمل على الشخصيات التي تقبل الظروف وتستسلم أمامها دون السعي وراء تغييرها لتحقيق الأهداف. فنواجه في الثنائية نماذج مختلفة من هؤلاء الشخصيات كخضرة التي أشرنا إليها وإلى حياتها الصعبة آنفاً وعلمنا أنها تداعت تحت وطأة الظروف الاقتصادية الصعبة وقضتها دون أي تحدٍّ وصمود. وهذا ما تعرّفنا عليه من خلال أقوال خضرة إذ تحكى حياتها الشخصية لسعدية وتشكو من بختها قائلة:

«يا الله يا سعدية. على الأقل إلك أولاد يسألو عنك أما أنا، يا حسرة على بختي. ما إلى غير ختيار بدل ما يعينى يخبلى. هربت من الأول الله يقطعه. كانت إيدته والهواية يضربنى ضرب ما تتحمّله العفاريت. وهربت وقلت يمكن أرتاح.. تجوزت الثاني قلت يمكن الأقى أرتاح فيه. قلت أقعد فى بيت رجال يكفينى ويريحنى من الخدمة فى بيوت الناس والسرقه والتعريض. طلع مريض وحالته حالة، وبدل ما يطعمنى صرت أطمعه. مسكين، قلبه تعبان، وتيجيه كل نوبة يروح ما يروح فيها، أطمعه وأسقيه وأشترى له دواء.» (خليفة، ٢٠٠٨: ١٢٥).

تتضح معالم التسليم فى شخصية سعدية فى الجزء الأول من الثنائية حيث تعيش تحت ظل ربّ الأسرة وتعانى الفقر والجوع والأوضاع الاقتصادية الضيقة فنراها قانعة راضية بما لديها فى البيت من المأكولات، خاصة العدس فتطبخ جميع أنواع المعدّسات وتنوّع فى طهيها حيث لم يبق فى البيت إلّا العدس. ولا تسمح لنفسها الاعتراض أمام صعوبات الحياة العائلية بل تدبّر أمور العائلة بالسكوت والرضا دون أن تفكّر فى البحث عن عمل يعين الأسرة فى الخلاص من الأزمة المعيشية التى تهدّدها. فهى تستسلم أمام المجتمع الذى يحرمها -وكل مثيلاتها- من القيام بالأدوار الاجتماعية. فتستسلم أمام السلبى من العادات والتقاليد التى تستبدّ بالمجتمع آنذاك؛ تحبس نفسها فى البيت وتشتغل بشؤون البيت ورعاية الأولاد وتجهيز الطعام (خليفة، ١٩٩٩: ٤٤ و١٤٨).

وكذلك نرى ملامح التسليم (فى الجزء الثانى من الثنائية) فى شخصية نوار ابنة العائلة الكرمى -العائلة الإقطاعية التى تقهقرت فى ظل الاحتلال- وهى التى تحبّ الصالح الصفدى -المناضل الثورى المعتقل فى السجن الاسرائيلى- وتصرّ على الزواج منه وتثبت على موقفها بداية ولكن نراها (فى الجزء الثانى) تتراجع عن وعدّها الذى قطعتّه على نفسها بانتظار صالح ويتعبها الوحدة والانتظار، تتبيّن ضعفها أمام الواقع الصعب وعدم قدرتها على التشبّث بموقفها

١٤/ المرأة ومعاناتها في ثنائية سحر خليفة؛ «الصبار» و «عباد الشمس»

من خلال المقاطع الحوارية التي تجري بينها وبين أخيها عادل حيث تقول: «ما عدتُ أحتمل هذا الجو.. أريد الهرب.. أصبح الانتظار سجنًا وبت أحلم بالهرب.. رسائله لا تكفّ عن بذر الأمل، ولكنني ماعدتُ فتاة حالمة كالسابق أنا بحاجة إليه هنا، أراه أمامي... سبعة أعوام، سبقتها أخرى وتتبعها أخرى، وما جدوى الانتظار؟ (خليفة، ٢٠٠٨: ٥٤) وحينما يذكرها عادل بوعدها تقول: «كان تياراً سحب القشّة على فقاعة ماء، وكم من الفقاع وكم من أعواد القش في عرض التيار!! التيار يسحب طالما ظلّ في الدفع قوّة، وإذا توقّف الدفع فالماء يأسن، فالفقاع اللامعة كفلقات الأقمار تنطفئ فجأة؛ كما جاءت ذهبت..» (المصدر السابق: ٥٦).

لقد جسّدت سحر خليفة من خلال شخصية نوار نموذج المرأة المثقفة التي تتحوّل بالانعطاف إلى الخلف. فعلى الرغم من السمات الإيجابية التي تمثلت في مواقفها، لكنها بفعل الرواسب الاجتماعية التي تغلّغت في أعماقها، وبحكم انتمائها الطبقي، باتت تعاني صراعاً داخلياً بسبب التناقض الحاصل بين الواقع والطموح. فتصبح الظروف الصعبة أقوى من إرادتها ومواقفها التي لم تبني على أساس فكري واضح ومتين (الشامي، ١٩٩٨: ١٧٨).

٧-٢- الشخصيات المقاومة

مصطلح الشخصية المقاومة تطلق على من يواجه السلبات المسيطرة على المجتمع بالرفض، ويتحداها بما لديه من قوة الإرادة وروح التحدي والصمود. فمن خير ما يمثل هذا النوع من الشخصيات هي شخصية سعدية التي تتحوّل إلى شخصية مقاومة بعد استشهاد زوجها؛ فبدأ التطور التدريجي اللافت في شخصيتها أي مرحلة اليقظة والوعي «إثر انخراطها في الحياة العملية بعد استشهاد زوجها، واضطرابها للخروج من عالمها الضيق المحصور في البيت والأولاد إلى العمل لاقتناص لقمة العيش، من غير أن تنتظر حسنات الأجاويد، فتسترخي للفقر والذل» (الشامي، ١٩٩٨: ١٥١). فتبدأ عمل الخياطة بمفردها في منزلها ثم لا يلبث عملها أن يتطور ويتسع بفضل دأبها واجتهادها ويصبح منزلها مشغلاً تخطط فيه القمصان التي يأتي بها شحادة من تل أبيب. ويفكر شحادة في الزواج منها لكنها لاتحبّه، تفكر في العمل الدؤوب و شراء قطعة أرض في جبل المشمس والجلوس في الفرائدة، وتسعى وراء ترجمة أحلامها إلى واقع فتتخذ أوّل قرار بنفسها بعد غياب زهدى فترفض الزواج من شحادة، فهو أعجف شاحب. أين هو من زهدى! ثم تنفذ قرارها الثاني؛ تترجم حلمها بشراء قطعة الأرض إلى واقع، وتشعر أنها أصبحت رجلاً أو نصف رجل (أيوب، ١٩٩٦: ١٢٤).

فهي شخصية نامية متطورة^٤ يتسم تحولها بالتقدم إلى الأمام إذ لا تخضع للعادات والتقاليد السلبية التي تمنعها من القيام بالشؤون الاجتماعية بل تثبت بولوجها إلى حقل العمل أنه من شأنها أن تقوم بالأدوار الاجتماعية وتثبت على قدميها ثابتة وتستلذ من الحياة، متحلية بثقة النفس والاعتماد على الذات. كما نراها تواجه المشاكل والصعوبات بعد استشهاد زهدى في حياتها الشخصية، فهي تقاوم رجالاً يريدون الزواج منها، وغاية آمالهم السيطرة على المرأة والتمتع بها واستعبادها ثم تحديد وظائفها في الشؤون المنزلية فقط. وهذا ما أثبتته سعدية حينما رفضت الزواج من شحادة، فهو رجل تعرف عليها أثناء العمل وكان يقوم بإتيان القمصان من إحدى شركات الألبسة لتخيطها سعدية ولizard دخلها وتتحسن أحوالها المادية. ولكنه رجل يريد بها بما تملك من الجمال والشباب دون أولادها وهذا جلي في أفكار شحادة حيث يفكر في ترتيب المشهد الذي سيصارع خلاله سعدية بحبه:

«ولكن أين هو المكان المناسب؟ وهل إذا وجدته توافق سعدية على الذهاب إليه؟ وإذا وافقت فهل ترضى به زوجاً؟ ولكنه سيملى شروطاً، فهو لا يستطيع الحياة مع رشاد في بيت واحد. وإذا سأله أين تذهب به سيقترح عليها إحدى مدارس الأيتام، ففي القدس مدرسة ولا مثلها في العالم.. فله أفكار تقليدية وهي مجسدة في أقواله: ك النسوان للدار و بس، وأحميك أنت بحاجة لرجال يحميك، (خليفة، ٢٠٠٨: ٩٧ _ ١٠٧).

اتضح مما تقدم أن سعدية شخصية مقاومة حقاً، لأنها تقاوم الجهل والفقر من جهة، والعادات والتقاليد من جهة أخرى، وتستمر مقاومتها إلى أن تسوقها إلى مقاومة عليا وهي المقاومة تجاه العدو الغاصب فنجدها تخرج على العدو الذي يهدد حريتها وحرية شعبها وتشارك في النضال والصمود أمام العدو الغاصب، و«حين يصادر الإسرائيليون الأرض التي اشترتها، يجن جنونها، ولأول مرة تتخلى عن خوفها على ابنها وخوفها من أن يوقعها في المشاكل فتصرخ بأعلى صوت: مشجعة ابنها رشاد، على الأعداء (أيوب، ١٩٩٦: ١٢٤).

وهذا يعتبر تحولاً لافتاً للنظر في حياة امرأة كسعدية التي كانت في السابق تردّ ضربات الجنود و شد الشعر بقولها «منشان الله»، وتستسلم للبكاء وحرقة القلب لكن الآن بعد نسف الدار وتبخر الأحلام تواجه الواقع المرّ وتلزم على نفسها مواجهته بمرارة. وبعد ما رأت النساء يندبن أزواجهن وأبناءهن، تصيح بجنون وتلومهن بسبب نواجهن: «بس، بس، صرعتونا. مش ناقص على الدنيا إلاً نواحكهم! أخذوا رجالكم و رحلوا جمالكم وبعدكم بتنوحوا. يا خبيبتكم من دون الناس يا ناس!» (خليفة، ٢٠٠٨: ٤١٥). ثم تهجم على الضابط الاسرائيلي وتشجع النسوة على الضرب بالحجارة فد «بدأت سعدية تضرب، والنسوة تضرب. حجارة، حصى، تراب شظايا زجاج، صراخ النسوة، ضرب وحجارة ومقاليع.» (المصدر السابق: ٢٢١).

ما شاهدنا ضمن تصرفات سعدية إزاء المجتمع والوطن يمكن أن يكون خير دليل على ما وصلته الكاتبة باربرا هارلو ضمن دراستها لروايات سحر خليفة حيث تستنتج بأن المرأة في روايات سحر خليفة تظلم بشكل مضاعف، من أهلها ومن العدو وأن للمرأة دائماً قضية إضافية عدا القضايا التي تواجه أي مجتمع. ولكن الصدام مع الاحتلال الخارجي يصبح في النهاية هو المسألة الرئيسية، فتضطر المرأة أن تتناسى الظلم الذي يمارس ضدها من مجتمعها وأن تنتفض لهذا المجتمع، فتقاتل لأجله (عزم، لاتا: ٤).

٧-٣- الشخصيات المتمردة

يطلق مصطلح الشخصيات المتمردة على من يتمرد على القيود التي تقف أمام تحرره، إضافة إلى عدم قبولها كواقع راهن، صالحة للتفاوض. ولعل أبرز الشخصيات النسائية التي تمثل نموذج المرأة المتمردة، شخصية رفيف وهي شابة واعية في الثلاثين من عمرها متحررة، تسعى لتحقيق ذاتها وتأكيد هويتها في ظل مجتمع تقليدي يعاني من الاستعمار والقهر الاجتماعي والاقتصادي والفكري بوصفها ضحية، تركز على قضية المرأة معتقدة بأن المرأة نصف الشعب وقضيتها جزء أساسي من قضية الوطن، ولأجل تحقيق ذلك تدعو أسرة المجلة إلى تخصيص نصف المجلة لشؤون المرأة باعتبارها نصف الجمهور ولأنه ليس هناك فرق بين الرجل والمرأة (المصدر السابق، ٢٠٠٨: ١٨٢ و١٨٣). تتور رفيف على الاحتلال وتربط هذه الثورة بثورتها على الثوابت والتقاليد الموروثة التي تتحكم بالمجتمع. فتفرط في تمرداها حيث تخرج على الأنظمة وعلى كل ما هو سائد، إذ ترفض الانضباط والانصياع، حتى للإشارات الضوئية التي تنظم مرور السيارات والمشاة وتعتبرها كلها وخاصة الضوء الأخضر خدعة ومؤامرة (حطيني، ١٩٩٩: ٣١) قائلة: «كنت أريد أن أقول إن الأضواء خدعة ومؤامرة. من وضع الأضواء وحدد لها نظاماً؟ ذوو العقول البليدة هم الذين يصدّقون، أنا لا أصدّق ولهذا أقطع الشارع متى أريد، أنا حرة أقطع الشارع متى أريد ولا أنتظر ضوءاً منهم، أصنع ضوئي بنفسى» (خليفة، ٢٠٠٨: ١١).

تحمل رفيف أفكاراً ثورية إيجابية وكانت تحاول تجسيدها من خلال عملها الثقافي في المجلة وبدعوة المرأة إلى ثورة جذرية على كل القيود التي تكبلها وتحدّ من تقدمها لكي تتمكن من تحرير الشعب والوطن ولكنها كانت تحتاج إلى من يؤازرها في رحلتها الطويلة وفي تحقيق غاياتها. فهي لاتستطيع أن تجسّد الأفكار والمفاهيم والقيم الإيجابية التي كانت مؤمنة بها (الشامي، ١٩٩٨: ١٨٩).

يتضح مما سبق أن هناك تشابهاً بين الشخصيات المقاومة والشخصيات المتمردة؛ فكلاهما يسعى استرداداً ما مُنِع من الحقوق، بالعمل والحضور في المجتمع. أما افتراقهما بالنسبة إلى

التقاليد؛ فالأولى ترفض السلبية وتقبل الإيجابية منها، ولكن الثانية ترفض كل التقاليد؛ سلبية كانت أم إيجابية. فهما تمثلان فكرتين؛ فكرة تدعو إلى التعديل بالعمل وحفظ ما يكون مفيداً لتقدم المجتمع، و فكرة تدعو به متمسكة بالأقوال والتهافتات والتصريح بما عند علماء الاجتماع الغربيين من نظرات وأفكار يصعب رسمها في المجتمع العربي، خاصة تحت الاحتلال منه.

نتائج البحث

١- إن الظروف السائدة على حياة المرأة الاجتماعية والشخصية تنشأ غالبيتها في الدرجة الأولى من العوامل الثقافية وخاصة المحاكاة العشوائية للتقاليد السلبية والأعراف المتجذرة في الذهنية العربية وبالتالي من الظروف الاقتصادية، نتيجة الحرب والاحتلال.

٢- تبدأ مقاومة المرأة أمام السلبيات من الأسرة وتتعداها إلى المجتمع وبعد ذلك إلى قضايا كالاحتلال، فهي تحس آلام الحرمان، مما يجعلها تتعاطف مع الوطن المحتل ويسوقها إلى الكفاح.

٣- إن العوامل الخارجية كالفقر والسجن والتقاليد السلبية والتمييز بين الجنسين تؤثر في تحول الشخصيات فتسوق البعض إلى المقاومة والمكافحة وتجر الآخر إلى السكوت والاستسلام.

٤- بالنظر إلى ما رأيناه من شتى الفئات من النساء العربيات و من أدوار مختلفة يقمن بها وهكذا كيفية تعاملهن مع واقعهن الراهن، يمكننا القول بأن الكاتبة تعطي المرأة دوراً فاعلاً مؤثراً في معظم الأحيان في علاقتها بالأسرة والمجتمع والوطن أيضاً.

٥- يتبين من الثنائية أن الظروف المدروسة فيها تنتمي إلى الإنسان الفلسطيني تحت الاحتلال عامة والمرأة الفلسطينية خاصة.

الهوامش

١- الواقعية الأدبية بمعناها العام والواسع، هي كل ما يمتاز به الأدب من تصوير دقيق للطبيعة والإنسان، مع العناية الكبيرة بالتفاصيل المشتركة للحياة اليومية (الأيوبي، ٣١٠، ١٩٨٤).

٢- وقد ترجمت هذه الرواية إلى العبرية والفرنسية والألمانية والهولندية والإيطالية والأسبانية والماليزية، كما ترجمتها تريفور لي غاسيك وإليزابيث فيرنيا إلى الإنجليزية عام ١٩٨٥م لصالح مؤسسة بروتا.

٣- ترجمت هذه الرواية إلى الإيطالية والألمانية.

٤- كاتبة سورية وباحثة الرواية النسوية العربية من مواليد ١٩٥٣م.

٥- تطلق على عمليتين فنيين ذوي موضوع واحد.

١٨/ المرأة ومعاناتها في ثنائية سحر خليفة؛ «الصَّبَّار» و «عباد الشمس»

٦- الشبّة: «نوع من الحجر الأبيض، الرقيق الشفاف، يذوب في النار، ويحترق ببطء، وغالباً ما يعلق في ركن من أركان البيت، دفناً للحسد، وله استعمالات طبية متعددة، منها تدويبه في الماء وغسل القدم به، بعد قلع الضرس، وفقاً للنزف.» (محبك، ٢٣٨، ٢٠٠٥).

٧- Dynamic Characters : هي التي تتكشف لنا تدريجياً خلال القصة وتتطور بتطور حوادثها ويكون تطورها عادة نتيجة لتفاعلها المستمر مع هذه الحوادث (نجم، ١٠٤، ١٩٧٤).

المصادر والمراجع

١- أبوشبير، بسام. (٢٠٠٧م). جماليات المكان في رواية باب الساحة لسحر خليفة. مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، جامعة الأقصى، غزة - فلسطين.

٢- أيوب، محمد. (١٩٩٦م). الشخصية في الرواية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، ١٩٦٧-١٩٩٣، رسالة ماجستير في الأدب والنقد الفلسطيني الحديث.

٣- الأيوبي، ياسين. (١٩٨٤م). مذاهب الأدب؛ معالم وانعكاسات، بيروت - لبنان، دارالعلم للملادين، الطبعة الثانية.

٤- الجيوسي، سلمى الخضراء. (١٩٩٧م). موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، المجلد الثاني، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٥- حطيني، يوسف. (١٩٩٩م). مكونات السرد في الرواية الفلسطينية، من منشورات اتحاد الكتاب العرب.

٦- خليفة، سحر. (١٩٩٩م). الصَّبَّار، بيروت، منشورات دارالآداب، الطبعة الثانية.

٧- خليفة، سحر. (٢٠٠٨م). عباد الشمس، بيروت، منشورات دارالآداب، الطبعة الرابعة.

٨- سلام، محمد زغلول. (١٩٧٣م). دراسات في القصة العربية الحديثة أصولها- إتجاهاتها- أعلامها، منشأة المعارف بالإسكندرية.

٩- الشامي، حسان رشاد. (١٩٩٨م). المرأة في الرواية الفلسطينية، (١٩٦٥-١٩٨٥)، دمشق، من منشورات اتحاد الكتاب العرب.

١٠- شعبان، بثينة. (١٩٩٩م). ١٠٠ عام من الرواية النسائية العربية، بيروت، دارالآداب، الطبعة الأولى.

١١- محبك، أحمد زياد. (٢٠٠٥م). من التراث الشعبي. بيروت، دار المعرفة.

١٢- نجم، محمد يوسف. (١٩٧٤م). فن القصة، الطبعة السادسة، بيروت، لبنان.

١٣- وتار، محمد رياض. (١٩٩٩م). شخصية المثقف في الرواية العربية السورية، دمشق، دراسة من منشورات اتحاد الكتاب العرب.

المواقع الإلكترونية:

- ١- جابر، عناية. (٢٠١٠م). سحر خليفة: أدبي واقعي من الناس وإلى الناس.
<http://www.dalilmag.net/?main=&part=1>
- ٢- العيلة، زكي. (٢٠٠٢م). المرأة في الرواية الفلسطينية، دراسة ماجستير أدب ونقد، جامعة عين شمس، القاهرة.
<http://www.zakiaila.net/index.php?option=com>
- ٣- عزم، احمد جميل، روايات سحر خليفة...اضطهاد المرأة الفلسطينية،
www.qa2ed.com/article/537/rss
- ٤- كريم، عالية. (٢٠١٠م). سحر خليفة صوت قوى وحظور ملموس.
<http://www.maakom.com>
- ٥- لحرش، نوار. (٢٠٠٩م). الرواية العربية الكبيرة سحر خليفة.
<http://www.shathaaya.com/go/index.php?uid=61>
- ٦- معتصم، محمد. (١٩٩١م). الخطاب الرواي والقضايا الكبرى (النزعة الإنسانية في أعمال سحر خليفة)، الدار البيضاء.
www.arab-ewriters.com/.../9415786620050924234107.doc

فصلنامه لسان مبین (پژوهش ادب عربی)
(علمی - پژوهشی)

سال چهارم دوره جدید، شماره دهم، زمستان ۱۳۹۱

زن و مشکلات وی در دوگانه سحر خلیفه (الصبار و عبّاد الشمس)*

حسین ابویسانی
استادیار دانشگاه خوارزمی
زهره باقر پور ولشائی
کارشناسی ارشد دانشگاه خوارزمی

چکیده

از مهمترین وظایف ادبیات داستانی جدید، بیان مشکلات زندگی انسان امروزی است. از این رو، این نوع ادبی بهترین ابزار برای انعکاس رخدادهای جوامع انسانی شناخته می‌شود. بویژه زمانی که این جوامع، اوضاعی چون جنگ و اشغال را سپری کرده اند، زندگی در چنین اوضاعی بیشترین مشکلات را برای قشر زنان جامعه به همراه داشته است. بر این اساس پژوهش حاضر، تلاش می‌کند تا موضوع زن و مشکلات وی را در دوگانه سحر خلیفه (الصبار و عبّاد الشمس) با تکیه بر مهمترین موضوعات مربوط به وی بررسی کند؛ چراکه نویسنده در این دو رمان، زندگی انسانی را در سرزمین اشغالی فلسطین با کاملترین جزئیات آن به تصویر می‌کشد. بررسی موضوع زن و مشکلات زندگی او، جز با تأمل در اوضاع و احوال معیشتی اش در دو عرصه خانواده و اجتماع میسر نیست. شرایط حاکم بر زندگی زنان در این دو رمان، زاده جو فرهنگی و تبعات ناشی از اشغال است. دو عامل یاد شده، نقشی مهم در تحول شخصیت‌های زن داشته؛ تحولی که میزان آن از شخصیتی به شخصیت دیگر در نوسان است. بنابراین میزان تحول شخصیتها از دیگر اهداف این پژوهش است؛ بدین ترتیب که شخصیت‌های مورد بررسی بر اساس چگونگی تعامل با وضع موجود و میزان تحول پذیری - خواه منفی و خواه مثبت - تقسیم بندی و بررسی می‌شوند. بنابراین پژوهش حاضر مبتنی بر شیوه تحلیل محتواست.

کلمات کلیدی

ادبیات داستانی، زن، سحر خلیفه، الصبار، عبّاد الشمس.

* - تاریخ دریافت: ۱۳۹۰/۰۹/۲۶ تاریخ پذیرش نهایی: ۱۳۹۱/۰۸/۰۷